الأدب ومنظومة القيم
ومضات نقدية

الدكتور: محمد سالم سعد الله
جامعة الموصل – العراق

الملخص

تنهض القيم بصناعة المشهد السلوكيّ ، المُؤسَّس على بناء الفكر المتقد ، الساعي إلى بلورة المشروع الحضاري ، والمتجه نحو عطاءات لا حدّ لها من التداخل مع المعرفيّ أو الثقافي أو الأدبي أو الفني ، ويحتم هذا التوجه رسم استراتيجية ناجعة للتعامل مع العلوم الإنسانية أولاً بوصفها علوما تعيش اللحظة التي تتفاعل معها ، وتنتج تصورات مهمة لإدامة عجلة الحياة وتطويرها ، وأنّ استدعاءها يشكل ضرورة ملحّة في اشتغال أنظمة النهج العلمي ، لأنّ المشروع الحضاري المتلون بالمنجز الإنساني هو مسيرة تزادن بقيم عدة بدءاً من قصدية النصوص ، مروراً بتوظيف الأفكار وليس انتهاء بالوظيفة الأخلاقية التي يقدمها الإبداع .

يتجه هذا البحث إلى بيان العلاقة الجدلية بين الأدب والقيم من خلال الحديث عن الأثر والتأثر بينهما ، والسلوكيات الناتجة عن ذلك إيجابا وسلبا ، فضلا عن تقديم ومضات نقدية متعلقة بدور منظومة القيم في معالجة الظواهر وتوجيهها نحو مسار نافع للفرد وللمجتمع ، مما يهيئ شكلا أو أشكالا عدة تنسجم مع التوجه الحضاري الذي يستدعي المثال ويأمل حضوره في جوانب معرفية متنوعة .

إن معالجة منظومة القيم في إطار الأدب وبيان العلاقة التي تحكمهما جدلاً أو انسجاماً تستدعي مواجهة تحديات شتى على صعيد تنوع الأفكار ، وتعدد التوجهات ، واختلاف الرؤى ، وانطلاقاً من التصور الإسلامي الذي نتشربه مساراً في الفكر والنقد والسلوك والممارسة ، حاولنا الاجتهاد في تقديم ومضات نقدية متعلقة بهذا الموضوع الحيويّ من خلال المحاور الآتية :

1. **أبجديات منظومة القيم .**
2. **الرؤية الإسلاميّة لمنظومة القيم .**
3. **الأدب الإسلاميّ والتصور القيميّ .**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أبجديات منظومة القيم

شغل الحديث عن القيم من حيث خصائصها وأنواعها وإشكالياتها وأقسامها مساحات واسعة في المنجز الفلسفي والفكري العالمي ، وقد تنوعت مقاصد تناول القيم وبيان منظومتها تبعا لتنوع التوجهات الدينية أو الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية ـ على صعيد العائلة منها بشكل خاص ، وسلوك الأفراد بشكل عام ـ التي عُنيت بهذا الجانب الحيوي[1].

وقد كرست الفلسفة الإنسانية منذ بذور نشأتها جهداً للحديث عن القيم وتوجهاتها ، حتى بات مبحث القيم والأخلاق قسماً مهما من أقسام الفلسفة ، إذ قدمت مفهوماً **للقيم (Values)** بوصفها مجموعة من الأخلاق والسلوكيات والمبادئ والمرتكزات الاجتماعية في بيئة معينة[2] .

وتصطبغ القيم بمعطيات التسليم بالتمثلات التي يتبناها المجموع في أمر معين ، وقد اصطلحت الثقافات المتنوعة على ذلك **بـالالتزام (Commitment)** ، ويُحدد الالتزام بمجموعة من السلوكيات المنضبطة والمتزنة تجاه قضية معينة تأخذ حكم التبني والتطبيق فكراً وواقعاً ، إذ يعد الأدب هنا وسيلة لخدمة فكرة معينة ، ويعد الأديب ذا مسؤولية نقدية وأخلاقية إزاء تمثل قضايا الفرد والمجتمع ، محاولاً تصحيح مسار الواقع ، والتطلع لمستقبل معرفي أفضل[3] .

وتبعاً لذلك أصبح للقيم منظومة مخصوصة تُعنى بتحديد مواقف منضبطة من المسائل التي يتعامل بها المجموع ، أو التي تشغل نمطاً من بنيته الفكرية أو الاجتماعية ، وقد تنوعت تلك التوجهات بين تحديد مواقف من الدين ، ومن الطبيعة ، ومن المثاليات ، ومن التوجهات البراجماتية ، ومن الأفكار الوجودية ، ثم تحديد الموقف من الدين والعلم والعقل والعلاقة مع الآخر في جانبيها التواصلي أو الانقطاعي ، ورسم معايير أخلاقية لوصف الأعمال أو السلوكيات بالإيجابية أو السلبية[4] .

ونظراً لتشعب محاور منظومة القيم وتنوعها ، فقد تعددت النظريات التي تحدثت عن القيم انطلاقاً من الميدان المعرفي الذي انبثقت منه ما بين نظريات تُعنى بالجانب الأخلاقي المرتبط بالتوجهات الدينية المثالية ، وبين نظريات متعلقة بالجوانب الاقتصادية ، وبين نظريات متعلقة بالإنسان نفسه وسلوكياته

([1]) ينظر: نظرية القيمة في الفكر المعاصر ، صلاح قنصوه : 51 ، 195 .
([2]) ينظر: المصدر نفسه : 195 وما بعدها .
([3]) ينظر: معجم مصطلحات الأدب ، مجدي وهبة : 79 .
([4]) ينظر: نظرية القيمة في الفكر المعاصر : 51 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنطلقة من الحرية والاختيار بعيدا عن السلطة ، وبين نظريات تفرغ القيم من محتواها وتنكر أي وجود لها في إطار من العدمية والعبثية[5] .

ومن المهم ذكره أن فلسفة القيم في التوجه المعرفي الغربي محصورة في قضية الحديث عن ثنائيات تتوزع عند الفرد بين ثنائية (الأيروس) و(الثيوس) أي بين دوافع الغريزة (الشهوة) ودوافع العنف ، أو بين ثنائية الإرادة والفهم ، أو بين ثنائية الرغبة والتحقق[6] ، لذلك فإن إشكالية تحقق القيم أو عدم تحققها مرده في الأساس ـ حسب التوجه الغربي ـ إلى إشكالية الفواعل لها وليست إشكالية الاقتناع بها أو الشعور بأهميتها[7] .

الرؤية الإسلامية لمنظومة القيم

تتشكل الرؤية الإسلامية لمنظومة القيم من منطلق الوظيفة التي تضطلع بها السلوكيات المرتبطة بصيغ إنسانية ذات الخصوصية الحضارية ، إذ رسمت مبادئ فكرية وطرائق عملية في سبيل تحقيق أولويات الفكر الإسلامي المتجه نحو الإنسان الذي يتأثر سلوكه تبعاً للسمات الحضارية التي يعيشها أو يتبناها[8] ، والمتمثل بالعبودية والخلافة والتمكين والتكريم .

وتقدم الرؤية الإسلامية في هذا الإطار نموذجا حضاريا معرفيا اتبع سُبُل الإقناع ، ومارس المنهجية المعرفية التي قدمت الدليل ونبذت الأهواء وشجعت الابتكار والاستنباط، وحاربت الابتداع والدجل .

وتتسم الرؤية الإسلامية لمنظومة القيم بكونها رؤية منفتحة ومتفتحة على التوجهات العالمية ، دون أي إحساس بالدونية ، هي توجه يحاور الآخر ، وينهل من حكمته ، ويقدم الأنا ، ويعلي من تصوراتها ، إنها رؤية خالية من (العُقَد) ، شمولية ، وعالمية ، وخُلقية ، لا تقيد نفسها إلا بحدود الشريعة ، ولا تداهن في تقديم نتاجاتها ، غرضها الإسهام في البناء العالمي الحضاري الجديد . بعد غياب لعدة قرون . ، وهدفها تقديم المعطيات الإسلامية التي تحمل خزيناً معرفيا ، وتجربة حضارية وإبداعا متواصلا ، إنه التصور للحياة وللكون وللإنسان ، من خلال رؤية إسلامية كونية ، تبدأ مع الوحي ، وتعمل بالنص ، وتبدع بالعقل .

([5]) ينظر: فلسفة القيم ، جان بول رزفبر ، ترجمة : عادل العوا : 75 – 90 .
([6]) المصدر نفسه : 109 .
([7]) ينظر: المصدر نفسه : 61 .
([8]) للاستزادة حول كيفية تأثر السلوك الإنساني بالحضارة ينظر: ارتقاء القيم ، عبد اللطيف محمد خليفة : 219 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد أسهمت الرؤية الإسلامية في منظومتها القيميّة ، وأثرت بشكل حيوي في التفكير الحديث وفي سلوكيات العقلانية المعاصرة ، وما تدريس معطيات الفلاسفة المسلمين وحديثهم عن القيم الإسلامية . كابن رشد وابن خلدون وغيرهما . في الجامعات الأوربية إلى الآن . إلا دليل على أهمية معرفة منظومة القيم التذي اضطلعت بها الرؤية الإسلامية في البناء العقلاني للإنسان ، ومحاولة لتقديم معطيات مهمة في سبيل تحقيق منزلة للعقل ، واحترام إنسانية الإنسان[9] .

قدمت الرؤية الإسلامية مسارات قيمها فيما يتعلق بالجوانب الإبداعية في الفنون والآداب ، واستخدمت أدوات الفعل التواصلي في الكلمة أو الصورة ، أو التعبير أو الرمز لأغراض التعايش مع الآخر ، وبناء جسور من الودّ والألفة ، وتحقيق فرص من الحوار ، ومنح المجموع فرص الحديث المنبني على أسس طرح الرأي وسماع الرأي الآخر ، دون إقصاء أو تهميش أو إلغاء ، بل الاحترام المتبادل القائم على الوعي بخصوصية الآخر واعتزازه بها ، وقد منحت هذه السلوكيات أصحابها تأسيس فضاء قيميّ من الود والتفاهم والتعايش ، دون احتقان جماعي بين الأفراد في البيئة الواحدة أو المتعددة ضمن التعايش المنسجم في ظل قيم الحق والخير والجمال[10] .

ولم تكن تلك السلوكيات القائمة على تفهم الآخر واحترام خصوصيته الدينية أو الفكرية أو السلوكية أو غير ذلك ، لم تكن تشكل وهما مشتركا يعيش بظله المجموع ، إنما مثّل علاقات اجتماعية ، وظواهر شعبية ، ووجود عقدي سلميّ ، صوّره الأدب ، ونقله في نصوصه المتنوعة ، وحاول بلورة معطياته انطلاقا من ثنائية الإقناع والإمتاع التي تسهم في رفعة العمل الأدبي ، وتكسبه صفة الإبداع ، وترسم له أفقا في الانتشار والشيوع ، وفي هذا السياق تشكلت الحضارات ، وتطورت المعارف ، وتنوعت الثقافات ، وتعدد الآداب ، وارتسمت خصوصية معينة لكل شعب أو لكل بيئة أو لكل أمة من الأمم في نصوصها وإبداع أبنائها .

ويكتسب الحديث عن هذا الموضوع أهمية معرفية انطلاقا من أن الرؤية الإسلامية تستدعي صيغا إنسانية ذات خصوصية حضارية ترسم مبادئ فكرية وطرائق عملية إبداعية في سبيل تحقيق أولويات الفكر الإسلامي المتجه نحو الإنسان والمتمثل بالعبودية والخلافة والتمكين والتكريم ، والساعية لتوظيف ذلك في نصوصها وفنونها وآدابها ، متعاملة مع متوالية قيمية مخصوصة ، ومعالجة قضايا عديدة تبدأ من النقل إلى العقل ، ومن العقل إلى الفعل ، ومن الفعل إلى الممارسة والسلوك والإنجاز والإبداع .

([9]) للاستزادة ينظر: القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر ، عبد المجيد بن مسعود : 69 وما بعدها .

([10]) ينظر : القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية ، صلاح الدين بسيوني رسلان : 129 – 130 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتسعى الرؤية الإسلامية إلى تقديم منظومتها القيمية في إطار من الشمول المعرفي الذي يكتسي نظما حيوية في تحليل النص وبيان دلالاته ، ويشتغل هذا التحديد أساسا في فضاء معرفي غايته إعلان العبودية لله ، ووسيلته تكريم الإنسان وحفظ دوره في الحياة ، وأداته احترم العقل ومنحه منزلة وخصوصية في الإبداع والابتكار والتحليل .

وتعد الرؤية الإسلامية مكونا معرفيا وفكريا لمعطيات الإسلام ورسالة الوحي إلى الإنسانية ، وقد قدمت تصوراتها القيمية لبناء السبل الصحيحة للتفكير الإنساني السويّ ، وصاغت تدرجاتها المعرفية وفق ثلاثية حضارية : (الوحي ، والنص ، والعقل) ، وتمتلك منظومةً معرفيةً قيميةً ، مهمتها تحصين الذات من الخلل ، ومن الوقوع في الزلل ، وتعين في تطبيق مفاهيم الإسلام ، وتسعى لتمثيل أركان الفعل الإيماني الذي أتى به الوحي ، وحُفِظ في النص ، وصدّق به العقل .

وانطلاقا مما سبق تقدم الرؤية الإسلامية في تعاملها مع منظومة القيم معالجات معرفية للفنون والآداب ، إذ تنهض من خلال ذلك بوظيفة حماية السلوكيات الإنسانية من الانحراف عن الاتزان ، وترغب ببناء مجتمع قيمي مثالي تسود فيه قيم الخير والحق والصدق وشيوع الأخلاق ، ونبذ كل ما يجافي تلك المعاني والسلوكيات ولا سيما بما يتعلق بإبداع النص وبيان دلالاته .

ولمنظومة القيمة في الإسلام علاقة وثيقة بالنوايا المتجه صوب تحقيق الخُلُق المنشود[11] ، وهذه خصيصة من خصائص منظومة القيم في الإسلام تتمثل بالتدرج في الأحكام ، ومنزلة التكليف ، وصفة الوسطية ، ووجود التشريع ، واقتران الإيمان بالعمل والسلوك[12].

([11]) القيم الضرورية ومقاصد التشريع ، فهمي محمد علوان : 115 .

([12]) للاستزادة عن خصائص القيم الإسلامية ينظر : المدخل إلى القيم الإسلامية ، جابر قميحة : 39 وما بعدها .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأدب الإسلاميّ والتصور القيميّ

الأدب الإسلامي هو التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي ، وهو ريادة للأمة ، ومسؤولية أمام الله عز وجل ، وهو أدب ملتزم ، والتزام الأديب فيه التزام عفوي نابع من التزامه بالعقيدة الإسلامية ، ورسالته جزء من رسالة الإسلام العظيم ، وجدير بالذكر أن الأدب طريق مهم من طرائق بناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح ، وأداة من أدوات الدعوة إلى الله عزّ وجلّ والدفاع عن الشخصية الإسلامية ، وهو مسؤول عن الإسهام في إنقاذ الأمة الإسلامية من محنتها المعاصرة ، والأدباء الإسلاميون أصحاب ريادة في ذلك .

إن الأدب الإسلامي حقيقة منذ انبلج فجر الإسلام ، وهو يستمد عطاءه من مشكاة الوحي وهَدْي النبوة ، ويمتد عبر العصور إلى عصرنا الحاضر ليسهم في الدعوة إلى الله عز وجل ، ومحاربة أعداء الإسلام والمنحرفين عنه ، إنه أدب الشعوب الإسلامية على اختلاف أجناسها ولغاتها ، وخصائصه هي الخصائص الفنية المشتركة بين آداب الشعوب الإسلامية كلها ، ويقدم التصور الإسلامي للإنسان والحياة والكون أصولا لنظرية متكاملة في الأدب والنقد ، وملامح هذه النظرية موجودة في النتاج الأدبي الإسلامي الممتد عبر القرون المتوالية ، ويرفض الأدب الإسلامي أية محاولة لقطع الصلة بين الأدب القديم والأدب الحديث بدعوى التطور أو الحداثة أو المعاصَرة ، ويرى أن الحديث مرتبط بجذوره القديمة ، كما يرفض النظريات والمذاهب الأدبية المنحرفة ، والأدب العربي المزوّر، والنقد الأدبي المبني على المجاملة المشبوهة، أو الحقد الشخصي ، كما يرفض لغة النقد التي يشوّهها الغموض وتفشو فيها المصطلحات الدخيلة والرموز المشبوهة ، ويدعو إلى نقد واضح بنّاء ، يعمل على ترشيد مسيرة الأدب ، وترسيخ أصوله .

فالأدب الإسلامي أدب قيميّ ، تتحقق وظيفته بتآزر مضمونه مع شكله ، وفي الوقت نفسه يفتح صدره للفنون الأدبية الحديثة ، ويحرص على أن يقدمها للناس وقد برئت من كل ما يخالف دين الله عز وجل ، وغَنِيَتْ بما في الإسلام من قيم سامية وتوجيهات سديدة ، وتشكل اللغة العربية الفصحى اللغة الأولى له الذي يرفض العامية ، ويحارب الدعوة إليها ، والأديب الإسلامي مؤتمن على فكر الأمة ومشاعرها ، ولا يستطيع أن ينهض بهذه الأمانة إلا إذا كان تصوره العقدي صحيحاً ، ومعارفه الإسلامية كافية ، ويتقيد الأدباء الإسلاميون بالإسلام وقيمه ، وهم ملتزمون في أدبهم بقيمه ومبادئه ومُثُله .

ويمثل الأدب الإسلامي تمثلاً شاخصاً وميداناً تطبيقياً لمنظومة القيم التي حملها الإسلام، وهي مجموعة من المبادئ والأهداف التي سعت جاهدة لتحقيقها ، وفي هذا الإطار سعى الأدب الإسلامي الملتزم إلى تحقيق القيم من خلال : إبراز سمات الأدب الإسلامي في القديم والحديث ، وإرساء قواعد النقد الأدبي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإسلامي ، وصياغة نظرية متكاملة للأدب الإسلامي ، ووضع مناهج إسلامية للفنون الأدبية الحديثة ، وإعادة كتابة تاريخ الأدب الإسلامي في آداب الشعوب الإسلامية ، وجمع الأعمال الأدبية الإسلامية المتميزة ونقلها إلى لغات الشعوب الإسلامية وغيرها من اللغات العالمية ، والعناية بأدب الأطفال ، ووضع منهج لأدب الطفل المسلم ، ونقد المذاهب الأدبية العالمية ومناهج النقد الحديث وإيضاح ما فيها من إيجابيات وسلبيات ، وتعزيز عالمية الأدب الإسلامي ، وتوثيق الصلات بين الأدباء الإسلاميين ، وإقامة التعاون بينهم، وجمع كلمتهم على الحق وفق منهجية قيمية متمثلة بالوسطية والاعتدال والبعد عن الغلو والتطرف ، وإسهام الأدب الإسلامي في تنشئة الأجيال المؤمنة ، وصياغة الشخصية الإسلامية المعتزة بدينها القويم وتراثها العظيم .

إنّ العلاقة الجدلية بين الأدب ومنظومة القيم ، وإن تمثل الأدب للقيم يشكل نوعاً من العولمة المضادة التي تتحدد ببروز نص ملتزم يسهم في نشر الوعي بضرورة إتباع أو عدم إتباع الفكر الوافد والدخيل، وهنا يبرز دور (الأديب) بوصفه صوتاً يمتلك تأثيراً في شرائح المجتمع المختلفة ، كيف لا وهو المتحدث باسم اللغة والفكر الآخذين بألباب الناس ، والمؤثرين على سير عواطفهم ، والمنظِمين لسلوكهم وتصرفاتهم بل وحتى نفقاتهم ، وأحلامهم .

وعلى الأديب في هذا السياق إدراك خطورة كونه الصوت المؤثر في الناس ، والقائم على أمانة أمام الله Y أولاً ، ثم أمام الطبقات الاجتماعية على اختلاف مشاربها ثانياً ، وعليه أن يعي وقوفه على أرضية هداية الناس ونصحهم على صعيد نصه الأدبيّ ، عليه أن يبني ما هدمه الآخرون ، ويصلح ما أفسده الناخرون ، عليه أن يحول كل مقالة أو كل محاضرة إلى منبر للتعريف بالقيم التي تشربها نصه .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المصادر والمراجع

ـ ارتقاء القيم : دراسة نفسية ، عبد اللطيف محمد خليفة ، سلسلة عالم المعرفة (160) ، المجلس الوطني للآداب والثقافة والفنون ، الكويت ، 1992م .

ـ فلسفة القيم ، جان بول رزفبر ، ترجمة : عادل العوا ، سلسلة زدني علما ، منشوات عويدات ، بيروت . لبنان ، 2001م .

ـ القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر ، عبد المجيد بن مسعود ، كتاب الأمة (67) ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الدوحة ـ قطر ، السنة 18 ، 1999م .

ـ القيم الضرورية ومقاصد التشريع الإسلامي ، فهمي محمد علوان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ـ مصر ، 1989م .

ـ القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية ، صلاح الدين بسيوني رسلان ، دار الثقافة ، القاهرة ـ مصر ، 1990م .

ـ المدخل إلى القيم الإسلامية ، جابر قميحة ، دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري ، القاهرة ـ مصر ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ـ لبنان ، 1984م .

ـ معجم مصطلحات الأدب : إنكليزي ـ فرنسي ـ عربي مع مسردين للألفاظ الفرنسية والعربية ، مجدي وهبة ، مكتبة لبنان ، بيروت ـ لبنان ، 1974م .

ـ نظرية القيمة في الفكر المعاصر ، صلاح قنصوه ، دار الثقافة ، القاهرة ـ مصر ، 1986م .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com